جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات إسلامية معاصرة / العدد 41 / أيلول 2024

نهج البلاغة والنهوض بالمجتمع
(رؤية إصلاحية)

Nahjul Balagha and the Advancement of Society
(A Reformist Vision)

م. د. إبراهيم مزهر صالح الموسوي

Dr. Ibrahim Mazhar Saleh Al-Moussawi

كلية الطف الجامعة
College of Al-Taf

الكلمات المفتاحية: نهج البلاغة، الإصلاح السياسي، دور الامام الإصلاحي.

Keywords: Nahj al-Balaghah - political reform - the role of the reformist imam.

الملخص:

تبنى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) نهجاً إصلاحياً استطاع عن طريقه تأسيس جذور الإصلاح في الأمة الإسلامية، إذ يُعدُّ رائد الحركة الإصلاحية في وقت مبكر من تاريخ الأمة الإسلامية، من خلال تطبيقه أسس الرسالة المحمدية ولم يكن (عليه السلام) مهتماً بفكرة الحكم حين أُخذ منه فقد استطاع أن يكون مؤثراً وهو خارج السلطة.. فوقف بجانب الخلفاء الثلاثة وقدم لهم النصح وأرشدهم إلى الطريق إذا اشتبكت عليهم الرؤى.

فهو يؤدي واجبه الرسالي وإنْ كان خارج الخلافة، ولم يكن راغباً فيها بعد مقتل عثمان، إذ قال ﷺ للناس "دَعُونِي والْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْهِ العقول، وإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، والْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. واعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ولَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وعَتْبِ الْعَاتِبِ"، إلّا أنه استجاب إنقاذاً للموقف، وتحملاً للمسؤولية بعد إصرار الناس على انتخابه، فأولى خطوات الإصلاح التي أرادتها الأمة إذ تم تنصيبه بالانتخاب والاختيار من قبل الناس الذين ضجّوا من الفساد الذي حكمهم سنينَ طويلة.. فكانت ثورة الأمة واختياره ﷺ أولى خطوات الإصلاح وهو القائل ﷺ "فَمَا رَاعَنِي إلا والنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ وشُقَّ عِطْفَايَ".

بعد أن نهض بالأمر ﷺ حرص على توفر أول عنصر لعملية الإصلاح، وهو المبادرة والتصدي، فهو لا يعد الدعوة إلى الإصلاح شعاراً يُردده، بل فعل حقيقي يشتغل عليه ويطبقه قولاً وفعلاً...

رغم أن كل عملية إصلاح تستلزم تضحيات وخسائر، وتواجهها صعوبات وعوائق، فبادر ﷺ لتنفيذ برامج الإصلاح، فعزل الولاة غير الصالحين للولاية، الذين أخذوا مواقعهم ضمن معادلة المحسوبيات، واستأثروا بالامتيازات وثروات الأمة.

واسترد أموال بيت المال من أيدي الحائزين عليها بطرق غير مشروعة، ولم يقبل التغاضي في ذلك، بل أجاب المعترضين بقوله: "وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، ومُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، ومَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ"

وحرص (عليه السلام) على اختيار أصحاب الكفاءات والتاريخ المستنير ليقودوا الدولة وليبنوها وكذلك ليكونوا قدوةً روحية وفكرية للناس.

ومع هذا وضع الرقابة على الولاة والعمال، واستخدم الحزم مع أي انحراف أو مخالفة.

Abstract:

Imam Ali bin Abi Talib (peace be upon him) adopted a reformist approach through which he was able to establish the roots of reform in the Islamic nation, as he is considered the pioneer of the reform movement at an early time in the history of the Islamic nation, through his application of the foundations of the Muhammadan message. He (peace be upon him) was not interested in the idea of rule when it was taken from him, as he was able to be influential while outside of power.. He stood by the three caliphs and offered them advice and guided them to the path if their visions clashed.

He was performing his missionary duty even though he was outside the caliphate, and he was not interested in it after the killing of Uthman, as he (peace be upon him) said to the people, “Leave me and seek someone other than me, for we are facing a matter that has many aspects and colors, which hearts cannot accept, nor minds can stand firm on, and horizons have become cloudy, and the path has become unclear. Know that if I respond to you, I will ride with you on what I know and will not listen to the words of the speaker or the reproach of the reproacher,” but he responded to save For the position, and to bear the responsibility after the people insisted on electing him, the first steps of reform that the nation wanted, as he was installed by election and selection by the people who were fed up with the corruption that ruled them for many years.. So the revolution of the nation and his selection (peace be upon him) were the first steps of reform, and he said (peace be upon him) “I was not surprised except that the people were like the mane of a hyena, flocking to me from every side until the two beautiful ones were trampled and my neck was torn.” After he took up the matter (PBUH), he was keen to provide the first element of the reform process, which is initiative and confrontation. He did not consider the call for reform a slogan that he repeated, but rather a real action that he worked on and implemented in word and deed...

Despite the fact that every reform process requires sacrifices and losses, and faces difficulties and obstacles, he (PBUH) took the initiative to implement reform programs, so he dismissed the governors who were not fit for the position, who took their positions within the equation of favoritism, and monopolized the privileges and wealth of the nation.

He also recovered the treasury money from those who had it illegally, and he did not accept to overlook it, but rather he answered the objectors by saying: "By God, if I found that women had been married with it, and slave girls had been owned with it, I would have returned it, for there is plenty in justice, and whoever finds justice difficult, injustice is even more difficult for him." He (peace be upon him) was keen to choose those with competence and enlightened history to lead the state and build it, as well as to be a spiritual and intellectual role model for the people. Despite this, he placed supervision over the governors and workers, and used firmness with any deviation or violation.

المقدمة:

الإمام علي عليه السلام ربيب الوحي والرسالة، الفدائي الأول للرسول والدعوة، وهو خليفة الرسول في حياته وبعد رحيلة، بأمر الله سبحانه ووصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبعد رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، أُبعد عن مقامه الذي نصبه فيه الله ورسوله، وقد ساير القوم حفاظاً على الإسلام والمسلمين، وأصبح مصلحاً ومرشداً، للذين تولوا قيادة الإمة، وهم ليسوا اهلاً لها، فقد تقمصها الأول، وأنه يعلم أن محل الإمام أعلى منها محل القطب من الرحى، فلما مضى لسبيله، وأدلا بها إلى الثاني من بعده، فكثر العثار فيها والاعتذار منها، حتى آلت الأمور إلى الثالث، وَ قَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ بنو أبيه، حتى كبت به بطنته، فنهض الإمام علي عليه السلام بالأمر وهو الخليفة الوحيد

المنتخب من الشعب في المدينة، فأول عمل قام به هو إصلاح ما أفسدته بطانة عثمان بن عفان من أمور الدين والدنيا، وقام بعزل كل ولاته، وأحل محلهم من يخاف الله سبحانه ويخشاه، ولم يترك الأمر لهم سداً، بل قام بمتابعتهم، وبمراقبة كل الأمور المهمة من أجل إصلاحها بنفسه الكريمة عليه السلام، فقد كان من أهدافه الإصلاحية عليه السلام توضيح المعالم الأساسية لهذا الدين كما جاء بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وما أراده الله سبحانه من عدل ومساواة بين الرعية.

توطئة:-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين

الإمام علي عليه السلام ربيب الوحي والرسالة التي أُمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بحملها والدعوة إلى التوحيد والعبادة وإصلاح البشرية وإنقاذها من الظلمات والكفر وانحطاط الأخلاق، والدعوة إلى نور الإسلام والحضارة، وهو الذي قال فيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم "أنت مني بمنزلة هارون من موسى ألا أنّه لا نبي بعدي"[1]، وهو الذي اتسع لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كله، فانه عليه السلام لم يكن يحفظ القرآن ويحفظ علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حفظ الكلمة فحسب، بل كان يتحرك على ضوء القرآن وعلم الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم"، في ما استحدثه الناس من قضايا ومشاكل وتجارب. بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى. فانطلق عليه السلام مع الإسلام فكراً وروحاً وحركة وجهاداً وابتهالاً من أجل وضع الأمة على مسارها الصحيح عن طريق منهجه الإصلاحي الرسالي، وقد حفظ لنا كتاب نهج البلاغة الجزء الكبير منها.

ومن هذا الكنز العظيم، أخترتُ بعض النصوص الإصلاحية التي قام بها الإمام علي عليه السلام خلال مسيرة حياته بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن رأى انقلاب الموازين عند كثير من المسلمين والانقلاب على الشرعية، والانحراف عن تعاليم الشريعة، هناك من الناس من يحمل شعار الإصلاح ويطرحه كنظرية، ولكنه يتطلع إلى الإصلاح لتغيير أوضاعه الخاصة نحو الأفضل على حساب الأخرين.

إذاً نحن بحاجة إلى فكر الإمام علي عليه السلام في نظرية الإصلاح الحقيقي، للحفاظ على مصالح الأمة وحقوقها المشروعة، وصيانة كرامة الإنسان، وما أحوجنا إلى روح الإمام علي عليه السلام لكي نعيش روح نكران الذات من أجل المصالح العليا للمجتمع.

يتحدث البحث عن موضوع الإصلاحات التي قام بها الإمام علي عليه السلام المستمدة من الوحي الإلهي الذي كان هو الهم الشاغل له عليه السلام في كل أجزاء حياته وكان هو القرآن الناطق حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "علي مع القرآن والقرآن مع علي"[2]

ولاستخراج النصوص اعتمدت النسخة المنقحة من نهج البلاغة للدكتور صبحي الصالح، ورجعت في بعض الشروح إلى شرح نهج البلاغة (عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد المعتزلي) وشرح محمد عبده، عند الحاجة إليهما.

ويتألف البحث من تمهيد ومبحثين كل مبحث فيه ثلاثة مطالب

التمهيد:- معنى الإصلاح لغةً واصطلاحاً:-

المبحث الأول: دور الإمام الإصلاحي في عهد الخلفاء الثلاثة وفيه مطالب ثلاثة:-

المطلب الأول: في عهد أبي بكر.

المطلب الثاني: في عهد عمر بن الخطاب.

المطلب الثالث: في عهد عثمان بن عفان.

المبحث الثاني: الإمام المصلح علي عليه السلام.

المطلب الأول: إصلاحه في الجانب السياسي.

المطلب الثاني: المراقبة الشديدة للجهاز الحكومي.

المطلب الثالث: نظريته الإصلاحية عليه السلام في اقتصاد الدولة.

1-نصوص من وصاياه عليه السلام لجبات الأموال.

2- مراقبته عليه السلام للأسواق.

الخاتمة.

الهوامش.

المصادر والمراجع.

تمهيـــد:-

معنى الإصلاح لغةً واصطلاحاً:-

أولاً: الإصلاح لغةً:-

"الصلاح ضد الفساد، صلح يصلحُ ويصلُح صلاحاً وصُلوحاً، وانشد أبو زيد:-

فكيفَ بأطرافي إذا ما شتمتني؟ وما بعد شتمِ الوالدينِ صُلُوحُ

والإصلاح: نقيض الفساد، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه، وأصلح الدابة: أحسن إليها فصلحتْ.

والصلاح بكسر الصاد: مصدر مصالحة، والعرب تؤنثها، والاسم الصُلُح، يذكّر ويؤنث. وأصلح بينهم وصالحهم مصالحة وصلاحاً، قال بشرُ بن أبي خازم:-

يَسُومُونَ الصَّلاحَ بذات كهفٍ، وما فيها لهم سَلعٌ وقارُ

وقوله: ما فيها أي وما في المصلحة، ولذلك أنث الصلاح"[3]

ثانياً: معنى الإصلاح: اصطلاحاً:-

"الصلاحُ ضد الفساد، وهما مُختصانِ في أكثر الاستعمالات بالأفعال، وقوبلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسيئة، قال تعالى "وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً"[4]، وقال تعالى "ولا تُفسدُوا في الأرضِ بعد إصلاحها"[5]، وقال تعالى "والذينَ آمنوا وعملوا الصالحات"[6]، في مواضع كثيرةٍ، والصُلحُ يختصُ بإزالة النِّفار بين الناس، يُقالُ منه اصطلحوا وتصالحوا، قال تعالى "أن يُصلحا بينهما صُلحاً والصُلحُ خيرٌ"[7]، وإصلاح الله تعالى للإنسان تارةً بخلقه إياهُ صالحاً، وتارةً بإزالةِ ما فيه من فساد بعدَ وجوده، وتارةً يكونُ بالحُكم له بالصلاح"[8]، ويمكن بيان ذلك من المبحثين الآتيين:-

المبحث الأول:-

نظرية الإصلاح على ضوء منهج الإمام علي عليه السلام :-

عاش الإمام علي عليه السلام منذ نعومة أظفاره في كنف الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونشأ في رعايته، وشرب من ينابيع مودته وحنانه، وتلقى التربية منه وفقاً لما علمه الله تعالى، ولم يفارقه من ذلك الحين، حتى التحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام لهذه التربية التي حظي بها من أستاذه ومربيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ومداها وعمقها في أحد نصوصه في نهج البلاغة إذ قال عليه السلام: "وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا ولدٌ يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويُمسني جسدهُ ويُشمني عرفه وكان يمضغُ الشيء ثم يُلقمنيهِ وما وجد لي كذبةً في قولٍ ولا خطلة في فعلً "[9].

لقد كان الإمام علي عليه السلام يتمتع بالصفاء الروحي، والاستقامة الخلقية، وفقاً لتعاليم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بحيث كانت تتكشف له كثير من حجب المستقبل المستور، ويمكن بيان ذلك من المطالب الآتية:

المطلب الأول:-

الإمام علي عليه السلام ونظريته الإصلاحية في عهد الخلفاء الثلاثة:-

بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وما جرى في السقيفة من الانقلاب على الشرعية، وظهور التكتلات السياسية في المجتمع الإسلامي على أثر بيعة السقيفة، لم يكن الإمام عليه السلام مقتنعاً بما جرى " فاعتزل الناس وما هم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما يُسمى بحرب الردة ولا سواها"[10]، وقد استجدت أمور وأحداث خطيرة هددت الإسلام وأمته بالفناء، وأشتد ساعد المنافقين وقويت شوكتهم في داخل المدينة، وكان الرومان والفرس للمسلمين بالمرصاد"[11]، فحرصاً منه على المصلحة الإسلامية وحماية المسلمين من التمزق والضياع، وحفاظاً على المصلحة الإسلامية العليا التي افنى حياته من أجلها أنكر ذاته وتناسى مظلوميته من أجل الإسلام والمسلمين، فقال عليه السلام"فأمسكت يدي حتى رأيتُ راجعةَ الناسِ قد رجعتْ عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد

ﷺ فخشيتُ إن لم أنصر الإسلامَ وأهلهُ أن أرى فيهِ ثلماً أو هدماً، تكون المصيبةُ به عليَّ أعظم من فوتِ ولايتكم التي إنما هي متاعُ أيام قلائلَ، يزول منها ما كان، كما يزول السرابُ، أو كما يتقشعُ السحابُ، فنهضتُ في تلك الأحداثِ حتى زاحَ الباطلُ وزهق، واطمئن الدين و تنهنه"[12].

كان عليه السلام يفكر كيف يحتضن الإسلام، وكيف يرشد المسلمين بعقله وفكره وحركته، لهذا قال عليه السلام"لأسالمنَّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليَّ خاصة"[13]، فتصدى عليه السلام لتوجيه الحياة الإسلامية وفقاً لما تقتضيه رسالة الله سبحانه في الحقول الشرعية والتنفيذية والقضائية. والذين سبقوه بمنصب خلافة المسلمين لم يروا بداً من الرجوع إليه واستشارته إذا التبست عليهم الأمور، وهكذا نجده مرة مرشداً إلى الحكمِ الإسلامي في أمر ما، ومرة نجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجهاً للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الإسلامية...

بما أن همه الوحيد هو الإسلام وليس المنصب، فلا يوجد لديه عليه السلام ما يمنعه من مسايرة القوم ليبقى الإسلام ويبقى محمد رسول اللهﷺ عقيدة في القلوب وترانيم على الألسن ترددها الملايين في أوقات الصلاة صباحاً ومساءً في كل زمان ومكان، ولم يكن له مأرب من وراء مطالبته بحقه المنصوص عليه كتاباً وسنةً إلا أن يحمل الناس على الخير ويحمل لهم الخير ويرأب صدعاً ويهز سيفاً في سبيل مجد الإسلام وانتشاره.

أولاً: في عهد خلافة أبي بكر: من توضيح المعالم الأساسية للدين الحنيف والحفاض عليه:-

أ-فكر أبو بكر في أيام خلافته غزو الروم فاستشار جماعة من الصحابة فقدموا وأخروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار علياً عليه السلام في الأمر فقال: إن فعلت ظفرتَ، فقال أبو بكر: بشرتَ بخير، وأمر أبوبكر الناس بالخروج بعد أن أمَّرَ عليهم خالد بن سعيد"[14].

ب- "أرسل ملك الروم رسولاً إلى أبي بكر يسأله عن رجل لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولا يخاف الله، ولا يركع ولا يسجد، ويأكل الميتة والدم، ويشهد بما لم يرَ ويحب الفتنة ويبغض الحق، فأخبر بذلك علياً عليه السلام فقال:-

"هذا رجلٌ من أولياء الله: لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولكن يخاف الله ولا يخاف من ظلمه، وإنما يخاف من عدله، ولا يركع ولا يسجد في صلاة الجنازة، ويأكل الجراد والسمك، ويأكل الكبد، ويشهد بالجنة والنار ولم يراهما، ويحب المال والولد، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، ويكره الموت وهو حق"[15].

فقد كان من أهدافه عليه السلام أن يوضح المعالم الأساسية لهذا الدين الذي جاء به نبي الإسلام ﷺ وينفض عنها غبار التضليل، وركام الزيف على أنه عليه السلام مارس العمل بالأولويات وقدم الأهم على المهم، وقد عمل وسعه على سد الذرائع والمنافذ التي تحاول النيل من الإسلام وشريعته الغراء فكان دوره النصح والإرشاد والإصلاح...

ج – قدم جاثليق النصارى يصحبه مائة من قومه فسأل أبا بكر أسئلة، فدعا علياً عليه السلام فأجابه عنها، نكتفي بذكر أنموذج واحد منها، من أسئلة الجاثليق: أخبرني عن وجه الرب تبارك وتعالى؟!

فدعا عليٌ بنار وحطب، وأضرمه، فلما اشتعلت قال عليه السلام: أين وجه هذه النار؟ قال الجاثليق: هي وجه من جميع حدودها، فقال عليُ (ع): هذه النار مدبرة مصنوعة، لا يعرف وجهها، وخالقها لا يشبهها، ولله المشارق والمغارب فأينما تولوا فثمَّ وجه الله لا تخفى على ربنا خافية"[16].

"رغم التحديات التي كان عليه السلام يعيشها والمحنة التي يمر بها وشعوره بأن محله محل القطب من الرحى وليس للرحى سوى قطب واحد، وإنه ينحدر عنه السيل لأنه في القمة، ولا يرقى إليه الطير لأن قمته غاية في الشموخ لا يقترب منها أحد، لذلك عاش عليه السلام غريباً في قومه، لأنه عاش في مجتمع لم يفهمه جيداً، لقد عاش التجربة الصعبة كأقسى ما تكون، ولم يكن يبحث عن نفسه فيما كان يريده من الولاية، ولكنه كان يبحث عن الإسلام، ولذلك كانت مشكلته أنه كان يرى أن الإسلام يضيع وينحرف عن مساره، وربما رأى في حركة الإسلام آنذاك حركة قوية أمتد بها الإسلام في العالم، ولكنه كان يبحث عن امتداد الإسلام في وعي الإنسان في العمق"[17].

ورغم إقصائه عليه السلام عن القيادة وقف ليدلي بآرائه الصائبة النابعة من عمق الإسلام، موضحاً قواعد الدين الصحيحة في كلِ موقف، فكان عليه السلام الميزان في شؤون الحياة الإسلامية من قضاء واجتماع وإدارة في عهد أبي بكر وما تلاه من فترات حكم الخلفاء. ولم تطل أيام أبي بكر فقد ألمت به الأمراض وعندما أشرف على الموت عهد من بعده إلى عمر بن الخطاب.

المطلب الثاني:-

أثر الإمام عليه السلام الإصلاحي في عهد عمر بن الخطاب:-

فإن الإمام علي عليه السلام رضي لنفسه أن يكون كغيره من الناس، في خلافة عمر بن الخطاب، ولا ينطق إلا بلسان البررة الأطهار يمنحه النصيحة ويزوده برأيه السديد كلما أشكل عليه أمر من ألأمور، أو طرأ حادث لم يسبق له نظير في حياتهم من قبل، تسيرهُ مصلحة الإسلام وحدها، ولا ينظر إلى الحكم والحاكمين إلا من هذه الزاوية، لقد أسهم أمير المؤمنين علي عليه السلام في الحياة العامة ما وسعه، وأدى ما عليه للجمهور من تعاليم وتثقيف وقضاء على مدى أوسع مما أداه في عهد أبي بكر حيث اقتضت الظروف ذلك. نذكر بعض النماذج منها:-

1-"بعد أن فتح المسلمون الشام جمعَ أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير إلى بيت المقدس أو إلى قيسارية، فقال له معاذ بن جبل: أكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك فأمتثله، فكتب بن الجراح إلى عمر بالأمر، فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر، فقال الإمام علي عليه السلام: مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تُفتحُ بعدها إن شاء الله تعالى، كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وصدقت أنت يا أبا الحسن، ثم كتب إلى أبي عبيدة بالذي أشار به علي عليه السلام"[18].

2- "إن عمر بن الخطاب رأى ليلة رجلاً وامرأة على فاحشةٍ، فلما أصبح قال للناس أرأيتم أن أماماً رأى رجلاً وأمرةً على فاحشةٍ، فأقام عليهما الحدَّ ما كنتم فاعلين؟ قالوا إنما أنت إمام. فقال الإمام علي عليه السلام: ليس ذلك لك، إذن يُقام عليك الحدُّ، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقلَّ من أربعةِ شهداء، ثم أن عمر ترك الناس ما شاء الله، ثم سألهم: فقال القوم مثل مقالتهم الأولى، وقال علي مثل مقالته، فأخذ عمر بقول الإمام"[19].

3- "جمع عمر بن الخطاب الناسَ فسألهم من أي يوم نكتب التاريخ ؟ فقال الإمام علي عليه السلام: من يوم هاجر الرسول، وترك أرض الشرك، ففعله عمر"[20].

4- قد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه: فقال عليه السلام "إنك متى تسير إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفةٌ دون أقصى بلادهم ليس بعدك مرجعٌ يرجعون إليه فابعث أليهم رجلاً محرباً واحفز معه أهلَ البلاء والنصيحة فإن أظهر الله فذاك ما تحبُ وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين"[21].

"ولقد تنبه الخليفة الثاني إلى أهمية ما يقوم به الإمام علي عليه السلام في هذا المضمار، فصرح مراراً مُشيداً بذلك الفضل، كقوله: " أعوذ بالله أن أعيش في قومٍ لستَ فيهم يا أبا الحسن"[22]، وقوله: " أعوذ بالله من معضلةٍ لا عليّ لها "[23]، وقوله: " كاد يهلك ابن الخطاب لولا علي بن أبي طالب"[24].

هذه بعض ملامح النظرية الإصلاحية الرسالية التي قام بها الإمام علي عليه السلام في زمان خلافة عمر بن الخطاب، ذلك علي عليه السلام يسمو وروحه تعيش الإسلام كله، استطاع أن يعالج الواقع الإسلامي، لو درسنا فكر الإمام علي عليه السلام دراسة معمقة لاستطعنا أن نحصل على علم واسع وعلى أفضل المناهج والأساليب في الحوار، وكيفية الولوج إلى القلوب لأن أقرب طريق لعقل الإنسان هو القلب، فنجده عليه السلام ينبذ مسالك العنف، ويخاطب القلوب ثم يخاطب العقول ويبدي المشورة للخلفاء وعامة المسلمين، فإنه عليه السلام يتحرك ضمن المصلحة الإسلامية العليا.

المطلب الثالث:-

ما قام به الإمام علي عليه السلام في عهد خلافة عثمان بن عفان:-

بعد أن آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان، مضى أمير المؤمنين علي عليه السلام في السبيل الذي خطه لنفسه يعمل ما وسعه العمل في سبيل الصالح العام لا يبخل عليه بآرائه كما سالم ونصح من كان قبله، ونذكر بعض ما حدث مع عثمان وموقف الإمام المصلح الهادي منها:

"أُتي إلى عثمان بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم برجمها، فقال الإمام علي عليه السلام: إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إن الله تعالى يقول: " حملهُ وفصالهُ ثلاثون شهراً"[25]، ثم قال عليه السلام "الوالداتُ يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة"[26]، فحولين مدة رضاعه وستة أشهر مدة الحمل، فقال عثمان ردوها أي لا ترجموها"[27].

كان عليه السلام يشعر أنه في موقع الخلافة وهو خارجها، لأن الخلافة لم تكن لديه كرسياً يجلس عليه، بل كانت بالنسبة إليه رسالة يتحرك بها.

وكان الفساد متفشياً في جهاز عثمان بن عفان، مما أدى إلى ثورة على عثمان وجهازه، فقد كان الإمام علي عليه السلام هو الوسيط الوحيد الذي كان يعتمد عليه الثوار الذين كانوا يحاصرون عثمان يطالبونه بالاعتدال أو النزول عن الحكم، ويعتمد عليه عثمان أيضاً، فكان سفيراً بين الطرفين، يبلغ قول بعضهم لبعض مع كلامه في ذلك، إن كان له كلام، وكان الإمام عليه السلام له نقد شديد على سيرة عثمان، ولذلك يرى الثوار على حق في ذلك، ولكنه مع ذلك كان يرى قتله (وهو خليفة) بيد الثوار مما لا يتفق مع المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، كان هم الإمام الوحيد

أن تتحقق المطالب المشروعة للثوار المسلمين، إما بانقلاب عثمان عن سيرته السابقة، أو بنزوله عن الحكم وتسليمه إلى أهله.

ولذلك فقد نقد الإمام عليه السلام الطرفين فقال: "استأثر فساء الأثرة! وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكمٌ في المستأثر والجازع"[28]، "أي أنه استبد عليكم فأساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم، وجزعتم لاستبداده فأسأتم الجزع أي لم ترفقوا في جزعكم، ولم تقفوا عند الحد الأولى بكم، وكان عليكم أن تقتصروا على الشكوى، ولا تذهبوا في الإساءة إلى حد القتل ولله حكمه في المستأثر وهو عثمان، وفي الجازع وهو أنتم، فأما أخذه وأخذكم أو عفا عنه وعفا عنكم"[29]. "وحينما عرض على عثمان مطالب الثوار كوسيط بينهم، أطلعه على قلقه من قتله وهو (خليفة) فيفتح ذلك على المسلمين باباً كبيراً من الفتن الكثيرة"[30]

فقال عليه السلام: "وإني أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل إلى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، ويموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً"[31].

"لقد بذل الإمام عليه السلام من الجهد لإصلاح الحال بما يضمن للخليفة هيبته وللأمة حقها المفروض لها، وكان عثمان يعطيه من نفسه ما يريد، ثم يعود فينقض كل ما بناه علي عليه السلام كما يشير عليه مروان وبنو أمية، وأخيراً ولما يئس منه ورآه مسيراً لحاشيته اعتزل المدينة وذهب إلى أرض له خارجها ليكون بعيداً عن كل ما يحدث بعد أن فشلت جميع مساعيه خلال شهرين تقريباً... ويبدو أن الثوار ظلوا إلى آخر لحظة يتهيبون قتله ويأملون أن يتراجع فيعتزل الناس أو يعطيهم ما سألوه، فلما قتل مروان بن الحكم رجلاً منهم انقطعت جميع آمالهم ولم يعد لهم سبيل إلا التخلص منه"[32].

المبحث الثاني:-

الخليفة المصلح المنتخب الإمام علي عليه السلام:-

اجتمعت الأمة على بيعة الإمام علي عليه السلام على أن يكون خليفة قائداً لها، بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وقد اجتاحت النفوس موجة من العاطفة نحوه عليه السلام، طلباً للعدل والمساواة وإصلاح ما فسد من أمور الناس، ولكنه عليه السلام رد على موقف الناس بقوله: "دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، ولا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإنَّ الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكّرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أموركم، وأنا لكم وزيراً، خير لكم منّي أميراً"[33].

وجاء هذا الرد من الإمام عليه السلام لأنه لعل نقمة الناس على عثمان هي التي أججت نحوه العاطفة وشدت إليه التيار، وهو يريد من الأمة إقراراً إرادياً لإمامته وقيادته، ليس محكوماً بالانفعالات والعواطف الآنية، وهو عليه السلام ليس ممن تُغريه المناصب وتستهويه الكراسي حتى يستجيب فور إقبال الناس عليه، فالإمرة كلها لا تساوي لديه جناح بعوضة، والقيادة لا تساوي عنده شيئاً، إن لم يقم من خلالها الحق ويُبطل الباطل.

قال عليه السلام واصفاً حال الناس الذين أصروا على بيعته: "فما راعني إلاّ والناسُ كعرفِ الضَّبُعِ إليَّ ينثالونَ عليَّ من كلِ جانبٍ، حتى لقد وُطيء الحسنان، وشُقَ عطافاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم فلما نهضتُ بالأمر، نكثت طائفة ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله إذ يقول:[34] "تلك الدار الآخرة نجعلُها للذين لا يريدون عُلواً في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين"[35]

وقد أصرت المدينة المنورة وهي العاصمة على اختياره، وخرجت على شكل تظاهرات حقيقية تطالب بقيادته عليه السلام اجماعية، لا جماعية، فإنه عليه السلام بقي مصراً على موقفه المتريث، ولكن أصرار الأمة على بيعته جعله يطرح عليها شروطه لقبول الخلافة، فإن بايعته الأمة وفقاً لما يملي من شروط استجاب هو لمطالبها في استخلافه، وقد أذاع بيانه المتضمن لشروطه:-

"واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل، وعتب المعاتب"[36]، وسارعت الأمة مذعنة لشروطه، ومدت إليه يد البيعة على الطاعة، ولبى هو مطلبها ليواجه مسؤوليته القيادية في الأمة الإسلامية على الصعيد الفكري والعملي، وقد كانت من أولى مهامه عليه السلام أن يزيل صور الانحراف المختلفة التي طرأت على الحياة الإسلامية، وإن يعود بالأمة إلى أصالة النهج الإلهي.

"ولما تمت البيعة انصرف أمير المؤمنين عليه السلام منذ اليوم الأول يجند كل إمكانياته لإصلاح ما أفسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة، تلك البطانة التي تركت جميع الأجهزة تُنخر بالفساد والانحلال، وكان يرى أن الواجب يدعوه لمعالجة الأهم فالأهم من المشاكل التي يتضجر منها الناس، وتأتي في طليعتها مشكلة الولاة التي أثارت تلك الضجة على الخليفة الراحل وأدت بحياته، حتى إذا فرغ منها اتجه إلى غيرها من المشاكل التي يراها أكثر إلحاحاً وأعم نفعاً، ولم يكن ذلك ليمنعه من أن يبسط للناس السياسة التي سينتهجها في عهده الجديد وما يقوم به من إصلاح"[37]، وقد انصبت نظريته الإصلاحية في حكومته على مواجهة المشاكل في الميادين المهمة، وسيكون ذلك عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول:-

أولاً:نظريته عليه السلام الإصلاحية السياسية:

حدد الإمام القائد عليه السلام مواصفات ولاة الأمر وموظفي الدولة الذين يرشحهم الإسلام لإدارة شؤون الأمة الإسلامية ببيان أصدره عليه السلام ووضح فيه مواصفات من يتصدى لقيادة الأمة جاء فيه:-

"أنَّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، والجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قومٍ، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيُهلك الأمة"[38].

"فقد كان من أهداف الإمام عليه السلام أن يوضح المعالم الأساسية لهذا الدين كما جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وينفض عنها غبار التضليل، وركام التزييف... وقد عمل وسعه على سد المنافذ التي ينطلق منها ظلم الناس، وتضيع من خلالها معالم العدل ورعاية الشريعة للمستضعفين من عباد الله عز وجل، ومن أجل ذلك يبادر أمير المؤمنين عليه السلام

فوراً لعزل الولاة والعمال والموظفين الذين كانوا سبباً في ظلم الناس وإشاعة الباطل، ويعود بالأمة إلى قاعدة المساواة في توزيع العطاء، كما كان رسول الله ﷺ يفعل"[39].

ثم يعلن عن سياسته التي تتوخى إقامة العدل: إنه سيعيد المال المغصوب من الأمة إلى بيت المال، حتى وإن وجده قد تزوجت به النساء أو مُلكت به الإماء.

ثانياً: نظريته عليه السلام الإصلاحية في الجانب الإداري:-

وضع خطته الإصلاحية الشاملة، وقد انصب جلُّ اهتمامه عليه السلام على إصلاح شؤون الإدارة والحكم، ومن ذلك العمل الإصلاحي الكبير حظيت الأمة عبر مسيرتها الجديدة التي اختطها لها أمير المؤمنين علي عليه السلام بمعطيات جمة ذات مردودات عظيمة لمصلحتها والمسيرة بشكل عام منها:-

أولاً:- الولاة والموظفين لإدارة دفة الحياة الإسلامية الذين استعان بهم الإمام عليه السلام، يُعد اختياره أنموذجاً في مستواهم الروحي والفكري والالتزامي: مثل عثمان بن حنيف، محمد بن أبي بكر، ومالك الأشتر، وسلمان الفارسي، وكميل بن زياد، وغيرهم. وبهذا الإجراء الذي راعى فيه مبادئ الإسلام ومصلحة الأمة، قضى على مبدأ القرابة والتعصب، الذي أدى في آخر المطاف إلى إثارة النقمة على عثمان ومن ثمَّ قتله.

وكان الإمام عليه السلام ينتقد عثمان على عهده ومن بعده ومن جملة ما قاله عليه السلام: " إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنية بين نثيلهِ ومعتلفهِ، فقام معه بنو أبيه يخضمون مالَ الله خضمةَ الإبل نبتة الربيع، إلى أن أنتكث فتلهُ، وأجهز عليهِ عملهُ، وكبتْ بهِ بطنتهُ "[40].

ثانياً:- إن الرجال الذين عينهم الإمام في إدارة جهاز الدولة رغم كفاءتهم لذلك، قد زودهم الإمام بخطط ومناهج راشدة، يهتدون بها في حياتهم العملية وفي علاقتهم مع مختلف قطعات الأمة التي يباشرون قيادتها، فهو عليه السلام يلزم ولاته بالنصح لعباد الله سبحانه، وإشاعة العدل بينهم ومعاملتهم باللين والمحبة، والتجاوز عن كل مظاهر الاستعلاء التي يغري بها المنصب، والحيلولة دون تأثير ذوي النفوذ الاجتماعي في مسيرة العدالة الإسلامية على حساب القطاعات الاجتماعية الأخرى، وإقامة الحق بين الناس بالسياسة العادلة والتواضع وإشعارهم بأن الحاكم هو من يدير شؤونهم وليس من تسلط عليهم، وإليك بعض النماذج منها:-

1- من كتابه عليه السلام إلى واليه على مصر محمد بن أبي بكر (رض):-

"واخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وأبسط لهم وجهك، وآسِ بينهم في اللحظةِ والنظرة حتى لا يطمعَ العظماء في حيفكَ لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلكَ عليهم، فإن الله تعالى يُسألكُمُ معشرَ عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يُعذب فأنتم أظلمُ وإن يعفو فهو أكرمُ"[41].

2- رسالته إلى واليه على البصرة عبد الله بن عباس (رض):-

"سع الناسَ بوجهكَ وَ مجلسكَ وحكمكَ وَ إياكَ والغضبَ فإنهُ طيرةٌ من الشيطانِ، وأعلم أنَّ ما قرَّبكَ من الله يُباعدُكَ من النارِ وما باعَدَكَ من اللهِ يُقَرّبَكَ من النارِ "[42]

3- من عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر (رض) عندما ولاه مصر:-

" وأشعر قلبكَ الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، والطف بهم، ولاتكن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتي على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوكَ وصفحكَ مثل الذي تحب وترضى أن يعطيكَ الله من عفوه وصفحه، فإنكَ فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقكَ، والله فوق من ولاك! وقد استكفاكَ أمرهم، وابتلاكَ بهم"[43].

من المؤكد أنَّ مسلكهُ ﷺ والطريقة التي كان يتعامل بها مع شرائح المجتمع المختلفة، كان على أساس إيمان وإخلاص وإنسانية ذلك المجتمع، ولم يكن أبداً على أساس معايير واعتبارات أخرى، ككثرة المال، أو علو المنصب والمقام، أو قوة القبيلة والعشيرة. هذا النحو من التعامل لم يكن موجوداً إلاّ عند جماعة قليلة من المسلمين، يأتي في طليعتهم إمامهم وقائدهم الإمام علي والأئمة الأطهار من ولده ﷺ، أما أولئك الذين استلموا مقاليد الأمور وسُدَّة الرئاسة في عهود مختلفة، فإن كل من حكم منهم وأمسكَ بزمام الأمور، العالي منها والداني، صرف جُلّ اهتمامه ليحتضن في فريق حكومته الشريحة الغنية والقوية والمقتدرة، محاباة لها، مع العلم أنَّ قسماً كبيراً من الولاة والمسؤولين لم يكن ذا خبرة وكفاءة تخوله المشاركة في شؤون البلاد والعباد. ولا يخفى ما في ذلك من إجحافٍ وضياع للقدرات والكفاءات التي كانت موجودة ومتوافرة بحوزة المسلمين، وكان لابد من تشغيلها للنهوض بلأمة الإسلامية نحو الأفضل والأكمل في تحقيق العدالة الاجتماعية.

ولا يخفى أن الذي قام به الإمام علي ﷺ هو تثبيت لإنسانية الإسلام واحترامه لمشاعر الناس، والانفتاح على الإنسان كله عن طريق انفتاحه على الإسلام وعلى إنسانية الإنسان.

المطلب الثاني:-

محاسبة الولاة والمراقبة الشديدة للجهاز الحكومي:-

رغم انتقاء العناصر الكفؤة والمخلصة كان ﷺ يحرص على الإحاطة بأساليبهم في معاملة الأمة عن طريق مراكزهم القيادية باستعانته بجهاز من الرقباء والعيون ليرى مدى طاعة الولاة وتنفيذهم لقواعد العدالة الإسلامية، فإذا بدأ من أحدهم خطأ أو تقصير، بادره الإمام ﷺ إلى تقويم سلوكه بالوسائل التربوية تارة وبالتهديد أو بالعزل إذا لزم الأمر ذلك، وإليك نماذج منها:-

1- قد كتب إلى مصقلة الشيباني وهو عامله على أردشير خُرَّة في قسمة الفيء:-

"بلغني عنكَ أمرٌ إنْ كُنتَ فعلتهُ فقد أسخطتَ إلهكَ، وأغضبتَ إمامكَ، إنكَ تقسِمُ فيء المسلمينَ الذي حازتهُ رماحُهُمْ وخيولُهُمْ، وأريقتْ عليه دماؤُهُمْ، فيمن إعتامكَ من أعراب قومكَ، فو الذي فلقَ الحبةَ، وبرأ النسمةَ، لئن كان ذلك حقاً لتجدنَّ بكَ عليَّ هواناً، ولتخفنَّ عندي ميزاناً، فلا تستهنْ بحقِّ ربك، ولا تُصلحْ دُ نياكَ بمحقِ دينكَ، فتكونَ من الأخسرينَ أعمالاً"[44].

هنا يغضب الإمام ﷺ من عمل هذا الوالي لأنه خرج عن القسمة العادلة بين المسلمين، وإنه بعمله هذا اسخط الله سبحانه وأصبح من الخاسرين وكأنه ﷺ يشير إلى قوله تعالى " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا"[45].

2- من كتابه إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف (رض) يوبخه على حضور مأدبة: " أما بعد، يا بن حنيف: قد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاكَ إلى مأدبة فأسرعت إليها تُستطاب لكَ الألوان، وتنقل إليكَ الجفان، وما ظننتُ أنكَ تجيب إلى طعام قوم، عائلهم مجفو وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمهُ فالفظهُ، وما يقنت بطيب وجوهه فنل منه"[46].

وعثمان بن حنيف (رض) من الصحابة الإجلاء ووجوههم، له قدِم في الإسلام المسلمين شهد مع رسول الله (ص) حروبه، كما شهد مع الإمام علي عليه السلام الجمل وصفين والنهروان، ولكفاءته وإيمانه اختاره أن يكون والياً على البصرة، ولكن استجابته لدعوة رجل ثري وحضوره في مجلس لا يوجد فيه مكان للفقراء هذا الذي أثار شجون الإمام عليه السلام.

3- من كتابه عليه السلام لأحد عماله حينما سمع بمخالفته للمنهج المرسوم له:-

"كيف تُسيغُ شراباً وطعاماً وأنت تعلمُ أنكَ تأكلُ حراماً وتشربُ حراماً ؟ تبتاع الإماء وتنكحُ النساء من مال اليتامى، والمساكين، والمؤمنين، والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، واحرزَ بهم هذه البلاد، فاتقِ الله وأردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنكَ إن لم تفعل ثمَّ أمكنني الله منكَ لأعذرنَّ إلى الله فيكَ، ولأضربنكَ بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلاّ دخل النار. ووالله لو أنَّ الحسن والحسين، فعلا مثل الذي فعلتَ، ما كانت لهما عندي هوادة، وظفرا مني بإرادة، حتى آخذ الحق منهما، وأزيحَ الباطل عن مظلمتهما"[47].

هذه نماذج من نظرية الإصلاح في سيرة الإمام علي عليه السلام من محاسبة الولاة والعمال لكي لا يستغل بعضهم منصبه ومقامه ويقوم بإجحاف حق الرعية ويجمع الأموال بأي طريق حصلتْ، أو يقسمها بحسب هواه بين الناس، وهذا هو تكليف إمام المسلمين والاهتمام بأمورهم. فكان للرقابة مكانها اللائق في فكر الإمام علي عليه السلام المستوحى من صميم الشريعة، كيف وهو ربيب الوحي؟ فقد كانت من أولياته عليه السلام، استشعاراً منه لأهميتها في إنجاز الأعمال، وتحقيق العدالة، وإعادة ثقة الرعية بالراعي بعد أن أصابها التشويه فيما من الأيام والسنين، وإيماناً بأهمية الرقابة في حفظ الأنفس والأموال، وما يحمل فكر الإمام عليه السلام بين جنباته من مُثُل إنسانية غاية في النبل والمروءة، وفي هذا الوقت نحن أحوج ما نكون إلى رقابة واعية صادقة هدفها الحفاظ على ثروات الأمة والمجتمع، وصيانة كرامة الإنسان فيه.

المطلب الثالث:-

نظريته عليه السلام الإصلاحية في اقتصاد الدولة:-

لقد استطاع الإمام عليه السلام استنطاق القرآن الكريم، فكان بحق القرآن الناطق والصادح بالحق، الذي يدور معه حيث دار، فها هو ربيب الرسالة السماوية، يضع المنهج الاقتصادي من الناحية النظرية موضع التطبيق، معرضاً عن كل المذاهب الاقتصادية الفقيرة، واضعاً بصمته من خلال كلماته، التي تعد كنزاً معرفياً، وتطبيقها عملياً للسياسة الاقتصادية والمالية والنقدية الإسلامية.

1-نماذج من وصاياه لجباة الأموال:-

رغم قصر المدة، وكثرة الحروب والفتن، فقد امتازت حكومة الإمام عليه السلام بتدعيم الأسس الاقتصادية للدولة الإسلامية المثالية، التي لو امتد بها الزمن لجعل من الأرض جنة الله تعالى عليها، لقد امتازت بالعدالة والمساواة، والأمانة والأمن ورفع الكفاءة الاقتصادية وتطبيق الشريعة والدين في جانبها الاقتصادي، وتحقيق التنمية والضمان الاجتماعي، حتى عكست لنا صورة الإسلام الناصعة، التي لن تتحقق في تطبيق أي جانب من جوانب الحياة، لاسيما المادية منها، وهذا نابع من الإيمان بالغيب وما تقره السماء، إذ العلاقة مع الله تعالى تحكم كل علاقات الناس ومنها الاقتصادية، ابتداء من النية والشروع في العمل والابتعاد عن المعاملات الربوية والعقود المحرمة، ومروراً بالادخار والاستثمار والإنفاق والاستهلاك والعرض والطلب، وأثناء العمل وكيف يكون أخلاق العامل والمدير والرئيس وهندسة العمل والتنظيم والإدارة، وانتهاء بتحقيق الإنتاج والتداول والتوزيع ورفع الضرائب والحقوق الشرعية، كل هذا لم نجده في أي مذهب اقتصادي، ويكفيه عليه السلام أنه جمع الاقتصاد في كلمتين تمثل الدورة الاقتصادية" ما عال من اقتصد"[48]، بحيث لا يمكن تجاوزه عليه السلام كأول واضع لعلم الاقتصاد من الناحية النظرية والتطبيقية، ومن وصاياه عليه السلام في هذا الجانب:-

"انطلق على تقوى الله وحده لا شريك لهُ، ولا تروعنَّ مسلماً، ولا تجتازنَّ عليه كارهاً، ولا تأخذنَّ منه أكثر من حق الله في ماله فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أنْ تخالط أبياتهم، ثم امضِ اليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تُخدج بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفتهُ، لإخُذَ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائلٌ: لا، فلا تراجعهُ، وإن أنعم لك منعمٌ فانطلق معهُ من غير أن تخيفهُ أو تُوعِدَهُ أو تعسفهُ أو ترهقهُ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كانت له ماشيةٌ أو إبلٌ فلا تدخلها إلاّ بأذنه"[49].

بالنظر للأهمية البالغة التي يحتلها جهاز جمع الضرائب (الجباية) في الدولة الإسلامية إذ تشكل الحقوق العامة في ملكية الأفراد عنصراً مهماً من عناصر الاقتصاد الإسلامي، وقد أولاه الإمام عليه السلام عناية خاصة لا من أجل أن يجمع أكبر نصيب من المال كما يفعل حكام الجور، وإنما من أجل أن يكون ذلك الجهاز في مسيرة العدالة الإسلامية المثلى التي جسدها الإمام في حياة الناس

فهؤلاء الذين يجمعون المال من الضرائب والزكاة وغيرها، في نظر الإمام عليه السلام ليست مهمتهم جمع المال من أجل المال، وإنما ينبغي عليهم أن يلتزموا الحق في تعاملهم مع الأمة وأن يعكسوا عدالة الإسلام لمن يلتقون بهم من الناس، وأن يعاملوهم باللطف والمروءة والإحسان إليهم، ويظهروا تسامح الإسلام وعطفة ومرونته.

2- مراقبته عليه السلام للأسواق:-

من أجل تجسيد العدالة الاقتصادية في مرافق الحياة الإنسانية كافة، فقد وضع الإمام عليه السلام خطة على ضوئها تتم مراقبة السوق من ناحية البيع والشراء وطبيعة ما يعرض للبيع، فكان عليه السلام كل بكرةٍ يطوف في أسواق الكوفة، فينادي: "يا معشر التجار! قدموا الاستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزينوا بالحلم، وتناهوا عن

الكذب واليمين، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا"[50]، "وأوفوا المكيالَ والميزانَ بالقسطِ ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين"[51].

والإمام عليه السلام لم يقصر مسؤولية متولي السوق على الرقابة، وضبط الوضع، وإنما تعدى ذلك إلى الحفاظ على الأموال الموجودة في السوق، فقد تظهر من هؤلاء المتولين أعمال خيانية في الأموال التي تقع في حيطة مسؤولياتهم، ولربما يرتكبون جريمة أخذ الرشوة لتحرير مخالفات معينة، أو إعطاء تسهيلات معينة لبعض الناس دون غيرهم، فكان عليه السلام يواجه مرتكبي هذه الخيانات بأشد العقوبات، ورغم ذلك لم يكتف الإمام عليه السلام بما يصل إليه من المراقبين والعيون الذين كلفهم بهذه المهمة، وإنما هو يراقب كل شيء بنفسه ما استطاع إليه سبيلا، فعن أبي النور قال: " رأيتُ علياً عليه السلام وقف على خياطٍ، فقال له: يا خياط ! صلّب الخيط، ودققِ الدرز، وقارب الغرز، فإني سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: يُؤتى يوم القيامة بالخياط الخائن وعليه قميصٌ ورداءٌ مما خاطهُ، وخانَ فيه، فيفتضحُ على رؤوس الأشهاد. ثم قال: يا خياط ! إياك والفضلاتِ والسقطاتِ فإنَّ صاحبَ الثوبِ أحقُ بها"[52].

فهذه الرقابة المشددة التي يقوم بها الإمام عليه السلام إنما هي تحصين العمال وغيرهم ضد الغش والخيانة، ومن هذا المنطلق ولكي لا يبخس الناسُ أشياءهم، ولا يتساوى المحسن والمسيء فتنهار القيم وتتآكل المثل، ويصاب الناس بالخيبة من عدالة الدولة، وقد دعا عليه السلام إلى إثابة المحسن وإشعاره بقيمة عمله، ومعاقبة المسيء، وتنبيهه على دناءة ما فعله، وكل هذا ليس بقصد الإثابة والعقاب فحسب، وإنما للإثابة أهدافٌ ومعانٍ سامية، وكذا العقوبة فهي ليست عقوبة تنكيل بقدر ما هي عقوبة تأديب، فهذه الرقابة في نظر الإمام عليه السلام كلها حنوٌ ومودة، وهي كتفقد الوالد الحاني لشؤون أولاده والوقوف على احتياجاتهم، لتجنيبهم ما يكرهون وما يكره من الأمور، فهي إذاً رقابة الأب العطوف، وليست رقابة المتسلط الجبار.

الخاتمة:-

تبنى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نهجاً إصلاحياً استطاع عن طريقه تأسيس جذور الإصلاح في الأمة الإسلامية، إذ يُعدُّ رائد الحركة الإصلاحية في وقت مبكر من تاريخ الأمة الإسلامية. عن طريقه تطبيقه أسس الرسالة المحمدية...

1-لم يكن عليه السلام معنياً بفكرة الحكم حين أُخذ منه فقد استطاع أن يكون مؤثراً وهو خارج السلطة.. فوقف بجانب الخلفاء وقدم لهم النصح وأرشدهم إلى الطريق إذا اشتبكت عليهم الرؤى. فالخلافة بالنسبة له رسالةٌ يتحرك فيها أينما كان ومن أي موقع شاء، وهو القائل: "لأسالمنَّ ما سلمت أمور المسلمين وإن كان بها جورٌ عليَّ خاصة"[53]

2- طريقةُ وصوله إلى الحكم كانت أُولى خطوات الإصلاح التي أرادتها الأمة إذ تم تنصيبه بالانتخاب والاختيار من قبل الناس الذين ضجّوا من الفساد الذي حكمهم سنينَ طويلة.. فكانت ثورة الأمة واختياره أولى خطوات

الإصلاح "فَمَا رَاعَنِي إلا والنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ وشُقَّ عِطْفَايَ".

3- وضوح المسؤول ومسؤوليته أمام الشعب.. فقد كان واضحاً عليه السلام مع الناس وموضّحاً لهم منهجه الإصلاحي الذي قد لا يقوون عليه فامتنع بادئ ذي بدء "دَعُونِي والْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْهِ العقول، وإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، والْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. واعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ولَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وعَتْبِ الْعَاتِبِ"[54]، إلّا أنه استجاب إنقاذاً للموقف، وتحملاً للمسؤولية..

4- العمل الجاد لتحقيق النظام الإصلاحي الذي أعدّه للناس رغم علمه بالعوائق الضخمة والعراقيل الهائلة التي ستواجهه لكنه كان ماضياً نظريته الإصلاحية التي يريدها طبقاً للشريعة.

5- حرص الإمام علي عليه السلام على توفر أول عنصر لعملية الإصلاح، وهو المبادرة والتصدي، فهو لا يعد الدعوة إلى الإصلاح شعاراً يُردده، بل فعلاً حقيقياً يشتغل عليه...

6- إن أي عملية إصلاح تستلزم تضحيات وخسائر، وتواجهها صعوبات وعوائق، لكن تصدي القيادات يجعل المهمة أقل صعوبة وأقرب للنجاح.

7- لقد بادر الإمام عليّ عليه السلام من بداية حكمه لتنفيذ برامج الإصلاح، فعزل الولاة غير الصالحين للولاية، الذين أخذوا مواقعهم ضمن معادلة المحسوبيات، واستأثروا بالامتيازات وثروات الأمة.

واسترد أموال بيت المال من أيدي الحائزين عليها بطرق غير مشروعة، ولم يقبل التغاضي في ذلك، بل أجاب المعترضين بقوله:

"وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، ومُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، ومَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ"[55]

8- حرص (عليه السلام) على اختيار موظفيه ومن سيختارهم ولاة من أصحاب الكفاءات والتاريخ المستنير ليقودوا الدولة وليبنوها وكذلك ليكونوا قدوةً روحية وفكرية للناس.

9- وضع الرقابة على الولاة والعمال، واستخدم الحزم مع أي انحراف أو مخالفة.

الهوامش:

(1) مسند أحمد بن حنبل، ج1، ص174.

(2) مسند أحمد بن حنبل، ج2، ص492.

(3) لسان العرب: ابن منظور، ج2، ص517 " مادة صلح ".

(4) سورة التوبة، 102.

(5) سورة الأعراف، 56.

(6) سورة البقرة،82 .

(7) سورة النساء، 128.

(8) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص489 (مادة صلح).
(9) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 190.
(10) تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 224.
(11) المراجعات، السيد شرف الدين، ص320.
(12) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 300.
(13) المصدر نفسه، رقم: 73.
(14) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج2، ص256.
(15) المصدر نفسه.
(16) علي والخلفاء، نجم الدين العسكري، ص133.
(17) الولاية امتداد المشروع الرسالي، محمد حسين فضل الله، ص32.
(18) علي والخلفاء، نجم الدين العسكري، ص90.
(19) كنز العمال، المتقي الهندي، ج3، ص96.
(20) تاريخ الطبري، ج2، ص253.
(21) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 132.
(22) فرائد السمطين، الجويني الشافعي، باب، 65.
(23) كفاية الطالب، الكنجي الشافعي، ص96.
(24) الدر المنثور، السيوطي، ج3، ص 144.
(25) سورة الأحقاف، 15.
(26) سورة البقرة، 233.
(27) تفسير ابن كثير، ج4، ص57.
(28) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 30.
(29) المصدر نفسه .
(30) في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، ص130.
(31) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 162.
(32) سيرة الأئمة الأثنى عشر، هاشم معروف الحسني، ج1، ص378.
(33) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 91.
(34) المصدر نفسه، رقم: 3.
(35) سورة القصص، 83.
(36) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 265.
(37) سيرة الأئمة الأثنى عشر، هاشم معروف الحسني، ج1، ص393.
(38) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 314.
(39) سيرة الأئمة الأثنى عشر، هاشم معروف الحسني، ج1، ص 393.
(40) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 291.
(41) المصدر نفسه، رقم: 281.
(42) المصدر نفسه، رقم: 283.

(43) المصدر نفسه، رقم: 279.
(44) المصدر نفسه، رقم: 252.
(45) سورة الكهف، 102-103.
(46) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم: 281.
(47) المصدر نفسه، رقم: 293.
(48) المصدر نفسه، الحكمة رقم: 141.
(49) شرح نهج البلاغة محمد عبده، ص293.
(50) تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي، ص116.
(51) سورة هود، 85.
(52) شرح نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ج7، ص38.
(53) المصدر نفسه، ج ٦، ص166.
(54) شرح نهج البلاغة، محمد عبده، خطبة، رقم، 91، ص209.
(55) المصدر نفسه، خطبة، رقم، 15، ص67.

المصادر والمراجع:-

1-القرآن الكريم.
2- نهج البلاغة.
3-ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين بن هبة الله بن محمد المدائني، ت (656) هجري، شرح نهج البلاغة، مكتبة المرعشي، ط2، قم، إيران،1404هجري.
4-ابن منظور، محمد بن مكرم، ت (711) هجري، لسان العرب، نشر الحوزة العلمية، قم، إيران، 1405هجري.
5-ابن شهر أشوب، محمد بن علي، ت (558) هجري، مناقب آل أبي طالب، دار الأضواء، ط1، بيروت، لبنان، 1985م.
6- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت (774) هجري، تفسير بن كثير، دار طيبة، ط2، بيروت، لبنان، 1999م.
7-أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت (310) هجري، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط4، بيروت، لبنان، 1983م.
8-أحمد بن محمد بن حنبل، ت (241) هجري، مسند احمد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، لبنان، 2009م.
9-أحمد بن إسحاق أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ت (284) هجري، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.
10-الحسن بن محمد بن المفضل، الراغب الأصفهاني، ت (502) هجري، المفردات، طليعة النور، ط1، قم، إيران، 1426هجري.
11-الجويني، إبراهيم بن محمد بن مؤيد الشافعي، ت (722) هجري، فرائد السمطين، مؤسسة الحموي، ط1، بيروت، لبنان، 1404هجري.

12-جلال الدين السيوطي، ت (911) هجري، الدر المنثور، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان، 1981م.
13-جعفر بن محمد، نجم الدين العسكري، علي والخلفاء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان،1407هجري.
14-سبط بن الجوزي، يوسف بن عبد الله، ت (654) هجري، تذكرة الخواص، دار العلم، ط1، بيروت، لبنان، 2004م.
15-صبحي الصالح، ت (1986م) نهج البلاغة، مؤسسة الاعلمي، ط1، بيروت، لبنان، 1993م.
16-عبد الحسين شرف الدين، ت (1377) هجري، المراجعات، ط1، مطبعة أسوة، ط1، قم، إيران، 1413هجري.
17-علاء الدين حسام الدين، المتقي الهندي، ت (975) هجري، كنز العمال، مؤسسة الرسالة، ط5، بيروت، لبنان، 1978م.
18-محمد عبده، ت (1323) هجري، شرح نهج البلاغة، مؤسسة الأعلمي، بلا تاريخ.
19-محمد بن يوسف بن محمد، الكنجي الشافعي، ت (658) هجري، كفاية الطالب، مطبعة الرسالة، ط2، طهران، إيران، 1404هجري.
20-محمد حسين فضل الله، ت (2010م) الولاية امتداد للمشروع الرسالي، مطبعة الأمين، ط1، قم، إيران، 2001م.
21-مرتضى المطهري، ت (1980م) في رحاب نهج البلاغة، دار التعارف، ط2، بيروت، لبنان، 1983م.
22-هاشم معروف الحسني ت (1983م) سيرة الأئمة الاثنى عشر، دار التعارف للمطبوعات، ط1، بيروت، لبنان،1414هجري.